

## رام الله التي هناك

تسكنني تماماً مثل القدس.

هي، بالنسبة لي، المدينة الثانية بعد القدس.

لم يحدث أن كانت لي صلات وطيدة ببقية المدن الفلسطينية مثلما هو الحال مع القدس ورام الله. وحينما أقول رام الله، فإنني أعني ضمناً، البيرة، أخت رام الله، المجاورة لها، الملتحمة بها دون انفكاك. عملت مدرساً في البيرة أواسط الستينات من القرن الماضي، درّست لمدة ثلاث سنوات في المدرسة الهاشمية الثانوية، وسكنت آنذاك في رام الله. سكنت بيوتاً عديدة، بعضها قريب من دوار المنارة، حيث مركز المدينة الصغيرة الوادة، وبعضها الآخر بعيد عن مركز المدينة، ويكاد يقع على تخومها، حيث الأراضي المنحدرة نحو الوديان المليئة بأشجار الزيتون والتين والعنب، التي تحيط برام الله من الشمال والغرب تقريباً، فتجعلها مدينة ذات امتداد ريفي بهيج. دخلتها أول مرة وأنا فتى في السادسة عشرة.

يقذفنا الباص القادم إليها من القدس من جوفه في محطته الأخيرة بالقرب من سينما دنيا، السينما التي ظلت مغلقة منذ الانتفاضة الأولى (كما لو أنه من المفروض ألا تكون هناك دور للسينما ما دامت هناك انتفاضة!) ثم ما لبث أصحابها أن هدموها قبل عام ليقيموا في الفراغ الناشئ عن هدمها موقفاً عاماً للسيارات (إساءة أخرى لتراث المدينة المعماري، واعتداء على الذاكرة، ذاكرة المدينة ومحبيها!).

من هناك، بالقرب من سينما دنيا التي لم يعد لها وجود على وجه الدنيا، كنا نمشي على الأقدام. على وجه الدقة، كنت أنا أمشي على قدمي وكذلك بعض العمال من أبناء عمومتي المرافقين لأبي. أما أبي، فقد ابتدع لنفسه تقليداً مريحاً لي حد ما، حيث يجد في انتظاره عاملاً من أهل

القرية التي نقصدها، ومعه حمار على ظهره برذعة. يركب أبي الحمار ونمضي خلفه، ووجهتنا قرية عين عريك التي لا تبعد كثيراً عن رام الله، لم يكن ثمة سيارات قادرة على الوصول الى القرية، وكانت مهمة أبي تمكين السيارات من الوصول الى هناك. كان يشرف على شق شارع يصل بين القرية والمدينة، وذلك صيف العام ١٩٥٧، كنت ما زلت طالباً في المدرسة، وقد اعتاد أبي أن يأخذني معه في العطل الصيفية للعمل في الورش مقابل بضعة دنانير في الشهر. استأجرنا بيتاً في القرية نقيم فيه طوال ذلك الصيف.

لأول مرة لا يقيم أبي في خيمة كما جرت العادة في ورش أخرى وفي أماكن أخرى. والبيت الذي أقصده ليس سوى غرفة واسعة لها شبابيك مستطيلة تعبرها في الليل رياح الصيف المنعشة، أنام الليل كله باستمتاع كبير، وفي أحيان غير قليلة كانت أطياف بعض الفتيات اللواتي يصادفني في أزقة القرية وبساتينها، تزورني في الأحلام، فأدرك ان حياتي تنفتح على مسارب جديدة، وأن ريف رام الله مسؤول بشكل أو بآخر عن ذلك، أو عن جزء منه.

في العطلة الصيفية التي حلت بعد عام، صرت أقرب إلى رام الله من العام الذي مضى. ينصب أبي خيام ورشته في الطيرة، حيث تجثم الآن مباني دار المعلمات، التي دخلتها أول مرة العام ١٩٦٥ لأشارك في ندوة قصصية أمام المئات من طالبات الدار. لأول مرة في حياتي، أقرأ قصصاً أمام الجمهور. قرأت على أسماع الطالبات قصة «اليوم الأخير» التي كتبتها آنذاك ثم نشرتها في مجلة الأفق الجديد المقدسية.

اختار أبي موقعاً مناسباً لخيامه لا يبعد كثيراً عن الشارع الذي يشقه للربط بين قرية عين قينيا ورام الله. لم يعد أبي بحاجة الى حمار ينقله أول كل أسبوع من قرب سينما دنيا الى الطيرة، فالمكان قريب، ويمكن الوصول اليه سيراً على الأقدام خلال عدة دقائق. كان لأبي سرير حديدي يرافقه في كل مكان يقيم فيه وهو ينتقل من قرية إلى أخرى لشق الطرق، وقد تبدت قيمة هذا السرير في الطيرة بالذات، أما أنا فقد كنت أفرش كل ليلة بطانيات فوق أرضية الخيمة الترابية، ثم أجيل النظر في أرجاء الخيمة قبيل اطفاء ضوء «الفنيار» الشحيح، فذلك واجب تقتضيه متطلبات السلامة العامة، أقصد سلامتي الشخصية. يستلقي مساعد والدي فوق بطانياته في الجهة المقابلة لي، ويقوم بالواجب نفسه حفاظاً على سلامته الشخصية، بل إن والدي، وهو مستقل في علية سريره، يمار هو الآخر أعمال المراقبة، ولم يكن صعباً علينا تحديد الأهداف المعادية. بعد ذلك مباشرة، نبادر الى حمل أحذيتنا، نهوي بأعقاب الأحذية على العقارب الساعية هنا وهناك، نسحقها، نلتذذ بسحقها، ثم نجلس في انتظار أن تظهر عقارب أخرى تنغل بها التربة الحمراء، أتحسر آنذاك على الغرفة الواسعة ذات الشبابيك المستطيلة في عين عريك. ومع ذلك فلا بد من النوم في نهاية المطاف، لأنه لا يعقل أن يظل المرء ساهراً في انتظار عقرب لا يدري متى سيظهر له، لكي يقتله قبل أن يلدغه. يبدأ مساعد أبي بتلاوة آية الكرسي بصوت مرتفع، كأنه يتكفل بذلك أمر حمايتنا جميعاً من خطر العقارب، ولا بد أن أبي كان بدوره يقرأ الآية نفسها، ولكن دون أن يجعلنا نسمعه، لأن عقرباً ظهر ذات ليلة على قماش الخيمة فوق

رأسه تماماً. أما أنا، فلم أكن أحفظ آية الكرسي، أكتفي بقراءة سورة الفلق ثلاث مرات متتالية، ثم أنام.

من موقعي الريفي في الطيرة، المتاخم لرام الله تماماً، بدأت أعد خطط الغزو، غزو رام الله ذات الأسرار المثيرة للفضول بطبيعة الحال. أعد الخطط بيني وبين نفسي ودون علم أبي، لأنه قد يعتبر ذلك ترفاً لا لزوم له. ولم يحدث هذا الأمر، أقصد الرغبة في غزو المدينة، صدفة، فثمة مقدمات لذلك، وقعت دون قصد مسبق ودون انتظار.

فقد اعتدت في ساعات ما بعد الظهر، بعد أن تعتدل حرارة الشمس، رؤية أسراب من النساء الشابات والفتيات اللواتي يكبرنني قليلاً أو يصغرني قليلاً في السن، يتهادين فوق الطريق الترابي، قادمات من رام الله وهن يرتدين ملابس مدنية تكشف عن سيقان بيضاء متناسقة وأذرع رشيقة. يلهب منظرهن الطازج خيالي، وازداد قناعة بأن رام الله تنطوي على مكر غير قليل وهي ترسل لي (لي !!)، هذه الأسراب من النسوة الفاتنات الذاهبات الى الكروم في أوقات الأصيل الرخية. صارت المرابطة على ناصية الطريق مهمة ثابتة بالنسبة لي، أراقب النسوة والفتيات عن قرب، وأمتع ناظري بأشكالهن الجميلة، وبجمالهن الخلاب، وأستمع إلى كلامهن العذب وبعض تعليقاتهن التي تعقبها ضحكات موزونة رقيقة.

لم يخطر ببالي مرة أن أتابعهن إلى الوادي حيث كروم التين والعنب، لأن ذلك كان سيفسد خططي، وسيجعل أبي ينتبه إلى أن ثمة اختراقاً في جدار مراقبته لي قد وقع، بل إنني كنت أحتاط لمرابطتي على ناصية الطريق إزاء أية مساءلة، أصطحب معي رواية «لمحمد عبد الحليم عبد الله، وكنت مغرماً آنذاك بقراءته. أصطحب معي «بعد الغروب» أو «شجرة اللبلاب». يبدي أبي ارتياحه لمجرد أن يراني أقرأ في أي كتاب، المهم عنده أن أقرأ دوماً، ولا يهم ماذا أقرأ، لأنه يريدني أن أحصل على شهادة المتكلم لكي أعمل بعد ذلك موظفاً، ولكي أساعده على تحمل نفقات الأسرة الكبيرة. كانت روايات محمد عبد الحليم عبد الله، بما انطوت عليه من رومانسية مجنحة، تملأ نفسي بالمشاعر الجياشة، وبالرغبة في التشبه بأبطالها من الموظفين الذين يستأجرون بيوتاً للسكن في المدينة، ثم تسوقهم الظروف إلى الوقوع في حب نساء ينتظرن قدومهم لكي يقعوا في حبهن، أو لكي يقعن في حبهن.

كنت راغباً في الذهاب إلى رام الله، للتجوال في شوارعها وأحيائها، لعل فتاة جميلة فارعة القوام تنتظرني هناك لكي تقع في حبي أو أقع في حباها. كان محمد عبد الحليم عبد الله مسؤولاً عن ذلك إلى حد كبير، وقد جاءت الفرصة السانحة بفضل أبناء عمومتي الذين يعملون في الورشة مع أبي. هم أول من اقترح بأن نذهب لاستئجار الدراجات الهوائية، فرحت لذلك، خصوصاً وأن ثمة من يفكر بغزو المدينة مثلي تماماً.

هأنذا أدخل المدينة وأحاول التعرف عليها عن قرب.

عبر التعرف على المدينة تزداد ثقتي بنفسي، وأشعر بأنني مقبل على مفاجآت غير قليلة في الحياة. أبي يحفظ حكمة لا أدري أين عثر عليها: كل من جد وجد. ولم يكن يقصد بذلك ركوب

الدراجات في شوارع المدينة، إنه يقصد بالضبط المداومة المستمرة على قراءة كتبتي المدرسية وعدم الالتفات إلى أي شيء آخر سواها. اعتدت على تفسير حكمة أبي على هواي، دون أن أناقشه في الأمر لأنه لا يحتمل النقاش.

ثمة سيارات من مختلف الأشكال والألوان تغدو وتروح في الشوارع، وبين لحظة وأخرى تنطلق أبواق بعضها، مدوية لأي سبب، قد يكون ذلك مزعجاً للراغبين في الهدوء التام، لكنني اعتبرته واحدة من العلامات التي تميز المدينة عن القرية، ولم يكن يسبب لي أي إزعاج، بل إنني كنت أستمتع في زمن سابق حينما أتمكن من التسلل إلى داخل سيارة متوقفة لسبب ما، أضغط على عجلة القيادة، حيث مركزها تماماً، فيصدر من ثم ذلك الصوت المنغم المحبوك.

وثمة نساء ورجال يسيرون فقط الأرصفة، نساء من النوعية نفسها التي كنت أراها ذاهبة إلى الكروم، ونساء بملابس تقليدية، نساء كبيرات في السن تقريباً، يتهادين فوق الأرصفة أو يظهرن في النواذف وعند أبواب البيوت. وثمة صبايا من النوع الذي أهفو إليه يظهرن في النواذف وعلى الشرفات. اجتهدت في ارسال نظرات مشبوبة متماهية مع سلوك أبطال الروايات التي أقرأها، غير أن نظراتي المشبوبة لم تجد أية فتاة تتجاوب معها في الحال. أو اصل السير في شوارع المدينة مع أبناء عمومتي الذين يتلفتون مثلي في كل اتجاه.

للمدينة سحرها الخاص، سحر يتسلل بخفة إلى قلبي ويمأ حواسي. ليست المدينة مزدحمة بالخلق، وهذا أمر أشعرني بالألفة معها منذ اللحظة الأولى. وهي مدينة صغيرة لا تعقيد فيها ولا اضطراب، ويبدو عليها أنها مكنتية بنسائها ورجالها، وبمن يأتيها من القرى المجاورة من رجال ونساء. يأتونها للعمل وللبيع والشراء، أو لمجرد التمتع بزيارتها والتردد على مطاعمها ومقاهيها. (بعد حصولي مباشرة على الشهادة الثانوية العامة، أعمل مدرساً في إحدى القرى التابعة للمدينة، وأكتب قصة «الفتى الريفي» التي أتحديث فيها عن زيارة قام بها أحد فتيان القرية إلى رام الله خفية عن أبيه. كان الفتى واحداً من تلاميذي في المدرسة، وقد استوحيت قصتي من زيارته للمدينة، فلم يرق له الأمر، لأنه لا يرغب في أن يكون بطلاً لقصة يقرأها الناس).

رحنا نبحت عن محل لتأجير الدراجات الهوائية. انصب اهتمامي كله على ركوب دراجة هوائية في شوارع رام الله. شعرت أن ذلك يكفيني ويحقق لي متعة لا أطمح إلى ما هو أكثر منها في اللحظات الأولى لتعرفي على المدينة، ويبدو أن ذلك أنساني - مؤقتاً - فكرة الاستمرار في التماهي مع أبطال محمد عبد الحليم عبد الله، أو ربما شعرت أن وجود أبناء عمومتي معي، سيحد من التعبير عن رغبتني في التعرف على فتاة أقع في حبها وتقع في حبي، وربما أدركت أنني بحاجة إلى توفير مستلزمات أخرى مثل تلك التي توفرت لأبطال عبد الحليم عبد الله: وظيفة، بيت مستأجر في حي مكتظ بالجيران، عمر مناسب تعقبه احتمالات الحب والزواج، أو احتمالات الدخول في أزمنة ثقة مع الحبيبة تدمر هذا

الحب. إذًا، ثمة مستلزمات! كنت قليل التجربة، وما زلت أحمل في قلبي لوعة الاخفاق التي سببتها لي فناة في القدس، ولذلك، فقد انصرفت بكل جوارحي إلى ركوب الدراجات. اجتزنا ميدان المغتربين، ومشينا قليلاً في الشارع الذي يمضي نحو مدرسة رام الله الثانوية، هناك عثرنا على المحل المنشود. شاهدنا الدراجات الهوائية وهي مركومة بانتظام مثير فوق حيطان المحل، استأجر كل واحد منا، نحن الأربعة، دراجة هوائية، ومضينا نعبر فوق الدراجات شوارع المدينة. وبالذات تلك التي لا تشهد حركة سير نشطة، مضينا في الشارع الموصل إلى المدرسة الثانوية، شارع جميل تحف به الأشجار، ويتمشى فيه أناس من أهل المدينة، وبالذات الصفوة المثقفة منهم بملابسها الحديثة المميزة التي تنم عن بسطة في العيش. نقود الدراجات في المرة الأولى بحذر، ولا نبتعد عن بعضنا بعضاً إلا ما ندر.

في مرات لاحقة، صرنا نتوغل على نحو أكثر اندفاعاً في شوارع المدينة. ندخل ميدان المغتربين، ونتجه نحو دوار المنارة، ثم ننتقل في شارع الارسال الذي تحف به هو الآخر أشجار لم يبق منها الآن إلا القليل القليل. نجوب الشارع نفسه عائدين في اتجاه المنارة، ندخل الشارع الرئيس المؤدي الى سينما دنيا، نكاد نقرب ونحن على الدراجات من الطريق الترابي المؤدي الى الطيرة، ثم نعود مرة أخرى إلى سينما دنيا، وإلى ميدان المغتربين، ومن هناك إلى الشارع الذي يهبط في اتجاه قرية بيتونيا، نجتاز الشارع الذي تتجاوز من حوله بنايات لها أسطحه من قرميد، وحولها بساتين محاطة بأسوار أو «سناسل»، ونظل منطلقين فوق الدراجات حتى تخوم القرية ثم نعود، نسلم الدراجات إلى صاحب المحل بعد انقضاء الوقت المنفق عليه، ومن ثم نمضي إلى خيام ورشة أبي فرحين، لا يعكر صفونا سوى هدير الطائرات التي تخترق فضاء رام الله متجهة نحو الشرق.

ثمة ثورة في العراق. هذا ما ترده الإذاعات، لم يكن لدينا مذياع في الخيمة. في النهار يجلس أبي تحت ظل شجرة ويراقب العمال وهم يكدحون تحت حرارة الشمس الحارقة، ويسأل بعض المارة من القرويين العائدين إلى القرية عن آخر الأخبار، وفي المساء، نتحلق جميعاً أمام باب الخيمة، نستمع إلى أبي وهو يعلق على الأخبار التي انتهت إليه بكلمات كلها أمل ورجاء، ونستمع بعد ذلك إلى أخبار النساء، يرويها مساعد أبي، المتيم بهن، كلما سنحت له فرصة لذلك، يبدي أبي بعض التحفظ على مثل هذه الأخبار، حرصاً منه على مشاعري الغضة كما يبدو، لكنه لم يحاول مرة إيقاف تدفقها، ربما لأنه كان هو الآخر راغباً في الاستماع إليها.

أما الطائرات فقد كانت تابعة لسلاح الجو البريطاني، كما تقول الإذاعات، وهي متجهة نحو الأردن لتحمي الحكم هناك من أية هزة مشابهة لما وقع في العراق. (سوف تأتي طائرات أخرى بعد ذلك بسنوات كثيرة، لها شكل العقارب المقيتة، للتحليق فوق سماء رام الله، ولتفريغ حمولاتها من الصواريخ فوق بعض مقرات السلطة الوطنية الفلسطينية، وذلك في انتفاضة الاستقلال. طائرات هيلوكبتر لها شكل العقارب التي كنا نسحقها بأعقاب أحمديتنا، وسوف تقوم هذه الطائرات بترويع الأطفال في رام الله وفي غيرها من مدن البلاد).

الآن بعد انقضاء ما يزيد عن أربعين عاماً على تلك الانطلاقة الصغيرة في شوارع رام الله، أبدو شبه مقتنع بأنني لم أتمكن حتى هذه اللحظة من فض أسرار المدينة بالرغم من صغرها الملحوظ، فقد ترددت عليها بعد ذلك كثيراً من المرات، وسكنت فيها، وما زلت أعمل فيها طوال السنوات السبع الماضية، وأشعر أنني ما زلت أهفو إلى معرفتها على نحو أفضل. أحبها وتشناق نفسي إليها باستمرار، أتأمل بيوتها القديمة بأسطحه القرميد، وأتأمل البنايات ذات الطوابق العديدة التي أخذت تنتشر على أطراف شوارعها الرئيسية وفي بعض أحيائها الجديدة، أتأملها من نافذة مكتبي، وأطيل التفكير فيها، وأشعر أنني ما زلت بحاجة إلى مزيد من الوقت لامتلاكها على نحو نهائي وأكيد، أو يبدو أنني أحاول البحث عن ذلك السحر الغامض، سحر المدينة الوادعة الذي استقر في قلبي وأنا بعد فتى في السابعة عشرة، ولم يعد سهلاً علي امتلاك ذلك السحر من جديد، إلا عبر مقاومة عنيدة للزمن، تتولاها الذاكرة التي لا تحب أن تفقد أماكن سبق لنا أن أحببناها وتعلقنا بها.

أغادر مكتبي بين الحين والآخر وأذهب للتمشي في شوارعها المكتظة بأجيال جديدة من الشباب، الذين يترقبون مرور فتيات في مثل أعمارهم وهن يرتدين أزياء حديثة، يلقون بالكلام العذب على مسامعهم، ثم يرافقونهن - إن كانوا على موعد معهن - إلى محل لتناول البوظة أو شرب العصير، وقد لا يحظون بمرافقتهم إن لم يكونوا على موعد معهن، وفي هذه الحالة لا يلقين بالألى كلامهم العذب المعسول. أقول لنفسي: للشباب منطقتهم الذي يتأبى على روح المحافظة التي تنفسي في المدينة، يتأبى عليها بالعلن حيناً وبالسر أحياناً أخرى.

والأحظ أن ثمة وفرة من بنات القرى المحيطة بالمدينة، أو حتى النائية عنها، يتدفقن كل صباح عبر شوارع المدينة، بعد أن يغادرن سيارات الفورد والحافلات القادمة من هناك، يتجهن إلى أعمالهن في البنوك والشركات والمؤسسات التي أخذت تتكاثر في رام الله منذ قدوم السلطة الوطنية الفلسطينية، وأراهن يرتدين أحدث ما تبيعه محلات النوفوتيه للطبقات الوسطى من سكان المدينة والأرياف، فأتذكر تلك السنوات الموهلة في البعد، حينما كنت مدرساً في قرية خربثا بني حارث، ولم تكن تتوفر آنذاك مدرسة للبنات فيها، فاضطرت ثلاث بنات ممن أبدى أهاليهن رغبة ملححة في تعليمهن، إلى الالتحاق بمدرسة الذكور في القرية، وذات يوم زار المدرسة مسؤول في إدارة التعليم، فوقع نظره على إحدى الفتيات، وهي في الصف السادس الابتدائي، ولاحظ كيف أن نهديتها آخذان في النمو تحت مريولها المدرس، فقال: هذه البنات يجب أن تعزل عن الأولاد، لكنه تراجع عن رأيه في ما بعد لدوافع إنسانية كما يبدو.

سيارات الفورد والحافلات القادمة من القرى تقذف بالفتيات والشباب للعمل. تذكرت أبي، وقلت دون مبالاة: كان له دوره في تمكين المدينة من توصيل قيمها العصرية إلى الريف. فالشوارع التي شقها دون كلل، وهو منهمك في الوقت نفسه في متابعة أخبار المنطقة التي لم تهنأ، إلا ما ندر، بلحظة فرح منذ ذلك الزمان، لعبت دورها في رفع العزلة عن الريف، لكنها في الوقت نفسه، وفي زمن لاحق بالذات، لم تعصم المدينة من الخضوع لقيم الريف التي وجدت

فرصتها السانحة حين انكسرت الآمال، وتغيرت الأحوال من سيئ إلى أسوأ والعياذ بالله. أذهب وحدي للتمشي في شوارع المدينة، فأشعر أن ثمة واقعاً جديداً يتشكل فيها، لكنه غير واضح وما زال ملتبس السمات، بحيث تستطيع العثور على الشيء ونقيضه في الآن نفسه. في زمن مضى، كنت أقضي ساعتين أو ثلاثاً من بعض أيام الأسبوع، وأنا أتمشى في شوارع المدينة بعد المساء صحبة صديقي الذي دلني على الطريق إلى الحزب. لم تعد المدينة بالنسبة لي مجرد شوارع مكرسة لركوب الدراجات، فهل تغيرت المدينة أم إنني أنا الذي تغيرت؟ ربما تغير كل منا، أنا والمدينة، في الوقت نفسه.

برزت رام الله في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، باعتبارها واحداً من أهم مواقع النشاط السياسي في البلاد، وتجمعت فيها نخبة سياسية من مختلف الأحزاب والقوى السياسية، التي تركت أثراً ملموساً بنشاطها على المدينة وعلى ريفها وعلى مجمل البلاد. رام الله، منذ تلك الأيام، أخذتني إلى السياسة على نحو قاطع وأكد.

صديقي الذي دلني على الطريق، كان قد التحق بالنشاط الحزبي في فترة مبكرة من حياته، ثم دخل المعتقلات والسجون، وكدس تجربة لا يستهان بها في مواجهة سياسات القمع وتكميم الأفواه، وقد جاء دوره الآن لكي يضمني إلى صفوف الحزب. كنا نجوب شوارع رام الله مرات ومرات، نتأمل المدينة والناس بعض الوقت، ثم نستغرق في شتى الأحاديث حول السياسة والأدب والثقافة والفن. كان صديقي مثقفاً يتمتع ببراعة في السرد، وفي الدفاع عن أفكاره، وكنت أصغي إليه حيناً، وأحاوره حيناً آخر.

بعد سنتين من الحوار المتصل، انتسبت إلى الحزب.

ابتدأت الطقوس الأولى لهذه العملية التي غيرت مجرى حياتي كله، في محل «أريزونا» للمرطبات الذي يقع بجوار سينما دنيا، وقد سبق أن أشرت لهذه الواقعة في كتابي المكرس لقدس «ظل آخر للمدينة». لم يعد هذا المحل على قيد الحياة الآن، وإلا لكنت زرتة مثلما زرت، بعد غياب طويل في المنفى القسري، كل البيوت التي سكنت فيها، خلال إقامتي في رام الله إبان فترة الستينات من القرن الماضي. (أشعر كما لو أن هذا الأمر وقع البارحة، ومع ذلك فلا مفر من القول إنه وقع في القرن الماضي!).

كم تبدو الفكرة محرجة ومحيرة!

تذهب إلى بيت لم تعد لك أية علاقة به، وتقول لساكنيه وأنت تستنفر كل ما لديك من دماثة وحسن نية: أقمت هنا ذات مرة، وأرغب في إلقاء نظرة على البيت من الداخل إذا أمكن، أهلاً! سيلوي الزوج «بوزه» بعدم ارتياح. فقد تكون زوجته الشابة تستحم في تلك اللحظة، وتغني بصوت عال في الوقت نفسه. سيبدو الأمر محرراً بكل تأكيد، وليس من اللائق أن يضطر زوجها إلى إيقافها عن الغناء لأن متيماً بالبيت قد وصل للتو. وقد يساوره الشك بأنك إنما تجيء لهدف آخر، هدف غير بريء، ولأنك اصطدمت بوجوده في البيت، فإنك تنتحل لنفسك عذراً أقبح من ذنب. قد تقع في مشكلة بسبب سوء الظن. من الأفضل إذًا، أن تمارس البحث عن حياتك التي

مرت من هنا، على نحو جزئي وعابر وبما تيسر من إمكانات، تقترب من البيوت التي سكنتها، تعابنها من الخارج بحذر، تتذكرها وأنت عائد إليها مبتهجا لهذا السبب أو ذاك، أو محملاً بالهموم والهواجس، وبالمخاوف من اعتقال سوف يأتي ذات ليلة، وتتذكر في الوقت نفسه، جارا طيباً هنا اعتاد أن يعلم حمارة بعض كلمات وإشارات، فلم يفلح في تعليمه شيئاً، وجارة طيبة هناك ترمي للقطط قطعاً صغيرة من اللحم المفروم، وامرأة عجوزاً لا تكف عن التثرثرة، وفتاة مرافقة تناطح الحيطان، ثم تنكفئ على نفسك عائداً من حيث أتيت، فالبيوت لا تعرف إلا من يسكنون فيها، وعليك أن تعترف بأن تلك واحدة من العضلات التي تدخل الأسي إلى قلبك كلما أردت أن تجمع شتات نفسك من توزيعها عبر بيوت كثيرة وأمكنة ومدن. (المكان الوحيد الذي لم أفكر بزيارته هو سجن رام الله الذي احتجزتني فيه سلطات الاحتلال الإسرائيلي ثلاثة أشهر العام ١٩٧٤، وقد قيل لي إن المحتلين الإسرائيليين هدموا زنازين السجن قبيل مغادرتهم للمدينة، اعتقاداً منهم أن ذلك قادر على طمس جرائمهم ضد المعتقلين والسجناء الفلسطينيين).

رام الله واحدة من المدن التي أحببتها وما زلت أحبها.

لكنني حينما أجتاز شوارعها هذه الأيام، فإنني أفعل ذلك وحيداً في أغلب الحالات، دون أصدقاء، مع أن الأصدقاء موجودون، وصديقي الذي دلني على الحزب ما زال موجوداً، وما زال صديقي بحق وحقيق رغم تبدل الأزمان. غير أنني صرت أكثر ميلاً إلى العزلة ونشدة الوحدة، لذلك فإنني أذهب للتمشي في شوارع المدينة وحدي. هل قلت التمشي؟ في الحقيقة إنني لا أذهب للتمشي، ولم أعد أمارس هذه الرياضة إلا قليلاً. أذهب في العادة إلى كشك الصحف والمجلات، أو إلى الصيدلية، أو إلى البنك، أو إلى المكتبة التي تباع الكتب مقابل موقف السيارات الذي ظهر إلى الوجود بعد هدم المبنى الخاص بسينما دنيا، أو إلى مكتبة رام الله العامة. أذهب لاستلام راتبي (فأنا ما زلت موظفاً حتى الآن!) أو لشراء دواء أو لشراء مجلة أو كتاب، أو لاستعارة كتب من المكتبة العامة، وأمارس في الوقت نفسه رياضة المشي للتخفيف من خطر تراكم الدهون السيئة على جدران شراييني. إذًا، أنا أحاول اصطياد عصفورين بحجر واحد.

وهكذا، فإنني أجتاز شوارع المدينة دون تدقيق زائد كما كان الحال في الماضي، ألقى نظرات سريعة على البضائع الكثيرة المنسقة بإتقان خلف الواجهات التي من زجاج، وعلى المجمعات التجارية التي يتردد عليها رجال ونساء من مختلف الأعمار والطبقات، وأحاول ما أمكن تلافي الاحتكاك بأجساد الفتيات، المحجبات وغير المحجبات اللواتي يتقاطرن فوق الأرصفة دون انقطاع، وأجاهد في أحيان غير قليلة كي أجد لي طريقاً بين الشباب الذين يتجمعون فوق الرصيف متكئين على حديد الدرابزين الفاصل بين الشارع والرصيف، أو الذين يتحلقون دون هدف تقريباً أمام بعض المحلات التجارية، يدخلون السجائر ويتصاحكون بسلاسة وانطلاق. (هؤلاء الشباب الذين لا يعرفون التزمّت ويمارسون حياتهم دون تعقيدات، هم أنفسهم الذين يتصدون لجنود الاحتلال عند الحواجز، يتلقون الرصاص بصدورهم، ولا يبخلون بتقديم أرواحهم قرباناً للوطن المكبل بالقيود).

يдахمني إحساس مفاجئ بأن زمني قد مضى وانقضى، وأن الميدان الآن مهياً وحسب لهؤلاء الشباب، فأشعر بشيء من القنوط ثم لا ألبث أن أدخل في اشتباك مع نفسي، كما لو أنني أرفض في أعماقي هذا الإحساس. وأقول لنفسي: زمني لم ينقض بعد. ثم أمضي في المكابرة وأقول: ما زلت أرى نفسي في بعض الأحيان، ذلك الفتى الذي جاب شوارع المدينة وهو في السابعة عشرة من عمره، فلم يتبدل بالرغم من عسف الزمان، وما زال يهفو إلى التعرف على فتاة جميلة تقع في حبه ويقع في حبها، وما زال يشعر أن رام الله التي عرفها قبل سنوات عديدة، تغفو هناك في قلبه مثل فتاة بريئة تنتظر محباً مخلصاً طال انتظاره.

أوائل الستينات (من القرن الماضي طبعاً) وحتى أواسطها، لم تكن الأمور على هذه الدرجة من التعقيد كما هي عليه الآن، أو هذا ما يخيل لي على أية حال. كان ثمة حماسة، بالرغم من القمع ومصادرة الحريات، وثقة في المستقبل بغير حدود. كان لذلك أسبابه ودوافعه الصحيحة، وكان ثمة بالاضافة إلى ذلك، رغبة في التبسيط وعدم الذهاب بعيداً في رؤية الأمور. ومع ذلك، فقد عشنا زمننا مدفوعين بالرغبة الجارفة في رؤية الأحوال وهي تنصلح بسرعة ودون انكفاء، غير أن هزيمة حزيران، قلبت كثيراً من الموازين.

سكنت رام الله عدة سنوات، وكنت في عز الشباب، أقرأ الكتب بنهم، وأكتب القصص القصيرة والمقالات، وأوظب على مشاهدة الأفلام. وأصبحت معنياً إلى حد كبير بالعمل الحزبي، ما جعلني أمارس دوراً تعبويًا منتظمًا بين الطلاب. كانت لي صداقات حميمة في المدينة، ألتقي بالأصدقاء في بيتي أو في بيوتهم، وفي الشوارع والمطاعم والمنتزهات. وكانت لنا مسراتنا الصغيرة: فريق كرة القدم في المدرسة الهاشمية، كان يجلب لنا بعض هذه المسرات. أبدينا اهتماماً كبيراً بهذا الفريق الذي طالما ألحق بفرق المدارس الأخرى هزائم جعلتنا معتزين به أشد اعتزاز. يقف مدير المدرسة في الصباح الذي يعقب الظفر، مملوءاً بالفخر، أمام الطلاب وهم مصطفون في طابور الصباح، يخطب فيهم قائلاً بحماس: إن الهاشمية قلعة لا تقهر، تستبد بنا النشوة ونحن نصغي لهذه الكلمات، أما إذا حلت بالفريق هزيمة فإن مدير المدرسة لا يظهر في ذلك الصباح الذي يعقب الهزيمة أمام الطلاب.

كانت رام الله تحيا حياة بسيطة آنذاك، ولم يمنعها ذلك من مراكمة مزيد من الصفات التي تجعل المدينة مدينة بحق: فثمة مهرجان غنائي صيفي يجري تنظيمه كل عام، ومطاعم وفنادق ومنتزهات ودور للسينما وشركات ومصانع صغيرة وأخرى متوسطة، وصلات حية للمدينة بأبنائها المغتربين في المهجر، وثمة قدر من الانفتاح الذي يكفل قدرًا من الحريات الشخصية ولو باعتدال. لكن هزيمة حزيران، مرة أخرى، جاءت لتعكس الكثير من التوقعات والأمال.

فاليوم، وبالرغم من وجود السلطة الوطنية الفلسطينية، التي ينبغي عليها أن تسرع في عمليات تمديد مدننا، فإن الحال لا يسر البال، ولا يروق للناظر أو للمتابع. ذلك، أن المحافظة والتزمت وقيم الريف المتخلفة، التي كرسها الاحتلال الإسرائيلي وهيا لها الظروف للانتعاش، تمارس دورها السلبي، في رام الله وفي غيرها من مدن البلاد. والشوارع التي شقها العمال

الذين عملوا تحت إشراف أبي لكي تربط القرى بالمدينة، وأسهمت في زمن سابق في نقل ما تضحخه المدينة إلى القرى من قيم عصرية، أخذت في سنوات لاحقة تضحخ إلى المدينة، قيماً لا تصلح للمدينة، بل إنها تحول المدينة إلى مجرد قرية كبيرة، والمسؤولية لا تقع على عاتق أبي بطبيعة الحال.

وما زلت أخرج للتمشي في شوارعها،

أو على الأصح، لقضاء شأن من شؤوني هنا وهناك، أتمشي، وألاحظ ما يعتمل في قلب المدينة من تحولات، حيث تتكاثر فيها وفي البيرة مواقع غير قليلة للثقافة وللنون ومحطات للتلفزة وللإذاعة، لا تجتمع في أية مدينة فلسطينية أخرى، وتتجمع فيها وزارات ومكاتب للسلطة الوطنية، ومنظمات غير حكومية، ومؤسسات للمجتمع المدني، وموظفون وموظفات من بعض الدول الأجنبية، وبالذات في المنظمات غير الحكومية وبعض المراكز الثقافية الأجنبية، وثمة أعداد كبيرة من العائدين إلى وطنهم الذين يقيمون الآن في رام الله والبيرة، وبينهم نخبة من المثقفين والإعلاميين والمهنيين، الذين عاشوا في مختلف المنافي، وحملوا معهم خبرات وتجارب وأنماط معيشة حضرية، تجعلهم قادرين على إثراء تجربة المدينة في التحول إلى مدينة حقيقية يتعزز فيها المجتمع المدني وتسان فيها الحريات العامة ومن ضمنها الحريات الشخصية وبالذات.

وبين الحين والآخر، أمضي إلى مكتبة رام الله العامة لكي أستعير بعض الكتب، أجتاز الشارع الذي يوصلني إلى المكتبة. الشارع يحمل اسم صديقي الشهيد الذي قضى في الغربية، بعد أن أبعدته سلطات الاحتلال من رام الله، وأتذكر أحلامنا المشتركة حينما التقينا بعد هزيمة حزيران مباشرة، ورحنا نعمل معاً في قيادة منظمة سرية للمعلمين، مهمتها مواصلة اضراب المدارس احتجاجاً على وجود الاحتلال وعلى عبثه بمنهجنا التدريسية. كان صديقي ينتمي إلى الأفكار نفسها التي أنتمي إليها، لكن له اجتهادات مختلفة عن اجتهاداتي، وبالذات في ما يتعلق بحل القضية الفلسطينية، ومع ذلك فقد بقينا نتحاور باستمرار حول قضايا سياسية وفكرية كثيرة، وحينما أبعدتني سلطات الاحتلال بعد ذلك من القدس، التقينا في المنفى بعض الوقت، ثم ما لبث أن قضى نحبه في سبيل الواجب والوطن. (أتذكر الآن شهداء آخرين، ورفاقاً من أبناء هذه المدينة ومن ريفها الفسيح، قضوا نحبهم فيها أو في المنافي، فألعن الاحتلال الذي مزق شملنا وأدخل إلى قلوبنا الكثير من الأحزان، وأتميز غيظاً من الموت الذي يغتال كل طمأنينة. وأتذكر آخرين من الرفاق والأصدقاء الذين يصارعون المرض ويواصلون، دون يأس، رحلة النضال، فلا أملك إلا أن أتمنى لهم الشفاء).

ذات يوم، قبل سنتين بالتحديد، التقيت ابنه، وقد عرفني عليه أحد الأصدقاء، أمام المكتبة العامة التي تعمل فيها أمه، وعلى رصيف الشارع الذي يحمل اسم أبيه. بادرت بالسلام عليه، ثم أخبرته بأنني أحد أصدقاء أبيه. تحدثت بإيجاز عن مدى اعتزازي بأبيه وعن مقدار احترامي لذكراه. أصغى إليّ بأدب وانتباه، شكرني ثم مضى مسرعاً إلى قلب المدينة، ومضيت إلى قلب

المكتبة العامة، مصرأً على أنني ما زلت أعيش زمني، وأن زمني لم ينقض بعد، وأن رام الله، بالرغم من التمتع والاستعصاء اللذين تبديهما نحوي في هذه الأيام، ما زالت، وستظل تشكل جزءاً أساسياً من تجربتي في الحياة.  
إنها مدينة الصبا والشباب، والأحلام الكبيرة والأمنيات.

محمود شقير  
القدس